القبائل والقراءات

للأستاذ عبد الستار أحمد فراج

— ٤ —

يرجع السر فى أن قبيلة تميم نالت قسطا كبيراً من عناية الرواة وغلبة ذكرهم لها ومعرفة الكثير مما انفردت به إلى أنها كما قدمت فى مقال سابق كانت تسكن جانب نجد المجاور للعراق .

ومعلوم لنا أن التنافس العلمى والسبق فيه كان ميدانه البصرة والكوفة المواجهتين لصحراء العراق حيث يخرج منهما — وعلى الأخص البصرة — العلماء والمتأدبون إلى البادية ليأخذوا اللغة من أفواه أربابها الذين لم تفسدهم العجمة . وكان إليهما يقصد الراغبون فى رواية الشعر ومأثور القول وضبط اللغة وغريبها على أعلام شيوخهما كأبى عمرو وأبى عبيدة ، والأصمعى وأبى زيد ، وخلف وحماد ، والمفضل الضبى وابن الأعرابى ، وغير هؤلاء وأولئك ممن كانت لهم فى العربية وعلومها قدم راسخة فلا عجب أن كانت تميم — وبطونها كثيرة — هى أول ما يروى لها ويؤخذ عنها . يضاف إلى هذا ما قدمته فى المقال الأول من أن البصرة والكوفة قد شملتا فى مبدأ إنشائهما عددا كثيرا من تميم ، وهذه من تكملة ما خالفت فيه غيرها وبخاصة الحجازيين :

١ — « عسى » من أفعال المقاربة تستعمل تامة بمعنى أن ما وليها يعرب فاعلا لها وذلك إذا ما جاء بعدها « أن والفعل » كقول الله تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم » .

وتستعمل ناقصة بمعنى أن يكون لها اسم وخبر مشبهة « كان » فى العمل وذلك إذا ما جاء بعدها اسم ظاهر أو اتصل بها الضمير فيعرب اسماً لها ، وبعده « أن والفعل » فيعرب خبراً لها كقول الله تعالى « عسى الله أن يأتى بالفتح » . إلا أن أهل الحجاز لا يلحقون بعسى الضمائر ولا التأنيث . يقولون : هند عسى أن تقوم والهندان عسى أن يقوما ، والهندون عسى أن يقوموا ... ، لذلك تعتبر عندهم فى مثل هذا التركيب مكتفية بفاعلها غير محتاجة لخبر . أما التميميون فيلحقون بها التأنيث والضمائر يقولون : هند عست أن تقوم والهندان عسيا ... والهندون عسوا ... ، فتكون فى مثل تركيبهم هذا ناقصة . وإذن فتميم تستعملها كان الناقصة دائما ، وأهل الحجاز لا يجعلونها كذلك إلا فى حالة ما إذا تلاها اسم ظاهر وبعده « أن والفعل » .

والقرآن الكريم فى أغلب قراءاته لم تقع فيه الضمائر مع عسى إلا فى موضعين « قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا » و « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض » وقرأ عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب « لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن » بالإضمار فيهما على لغة تميم « عسوا أن يكونوا ... عسين أن يكن ... » .

ثم إن عسى فيها لغتان : (ا) أن تكون على وزن سمى ، (ب) أن تكون على وزن لقى . غير أن الثانى منهما هجر استعماله على إطلاقه واقتصر فيه على اتصاله بتاء الفاعل أو نون النسوة أو « نا » . ومن العجب أن أبا حيان فى البحر نقل عن أبى بكر الأذفوى[1] وغيره قولهم : إن هذا الكسر لغة الحجازيين . وقد رأينا أن ذلك لا يكون إلا حين الاتصال بالضمائر السابقة وأن الحجازيين لا يلحقونها فاذا صح ما نقله أبو حيان عن الأذفوى يكون إلحاقهم الضمائر بعسى منتقلا إليهم من تميم إذ الأصل فى الاستعمال ما قدمته نقلا عن تفسير أبى حيان نفسه وعن الأشمونى وليس استعمال قبيلة للغة قبيلة أخرى بالأمر البعيد وعلى الأخص الحجازيين الذين خالطوا كل القبائل واقتبسوا من لغاتهم ما راق لهم . ومواسم الحج وأسواق العرب المشهورة لها أكبر الأثر فى تقارب اللغات وتفهم الألفاظ والتراكيب المنتشرة بين القبائل المختلفة . قال أحمد بن فارس بعد أن تكلم فى كتابه الصاحبى على اختلاف لغات العرب ما يأتى : « وهى وإن كانت لقوم دون قوم فإنها لما انتشرت تعاورها كل » .

(١) قال ابن الجزرى فى كتابه غاية النهاية : « أذفو بضم الهمزة وسكون الذال المعجمة وفاء ، مدينة حسنة بالقرب من أسوان » . فاعل سكانها الآن ، يفضلون ما اشتهرت به قديما بالإعجام على ما ينطق به اليوم بالإهمال .

هذا وقد قرأ نافع المدنى « عسيتم » فى موضعيها السابقين بكسر السين وقرأ الباقون بفتحها .

٢ — فى اسم الإشارة المفرد المذكر والمؤنث لا تلحق به تميم اللام فى حالة البعد بل تلحق به كاف الخطاب فحسب . لكن الحجازيين يلحقون به اللام مع الكاف . فعند تميم « ذاك وتيك » للبعيد وعند الحجازيين « ذلك وتلك » ومن هذا يتبين لنا أن بعض النحاة حين يقولون . هذا للقريب ، وذاك للمتوسط وذلك للبعيد ، فيه خلط بين لغات القبائل إذ وجدوا صيغا ثلاثا فعللوا لها وفرقوا بينها . ونحن إذا لاحظنا مثلا كلمة « ذاك » فى إشارتنا نجدها أوضح فى البعد من « ذلك » لما فيها من إطالة لحرف المد وافية بالغرض . وما تزال فى كثير من قرى مصر بالصعيد تستعمل « داك » بالدال المهملة فى الإشارة البعيدة للمذكر ، و « ديك » للمؤنثة البعيدة . والواقع أن الشىء إما قريب[1] منك حسا أو معنى ، أو بعيد منك كذلك . وفى اللغة الانجليزية « this that » وفى الفرنسية « Ci la »

ومما يلحق بهذا أيضاً « هنالك وهنالك » ، فالحجازيون هم الذين يلحقون اللام وتميم لا تلحقها جريا على قاعدتها من أنها لا تلحق اللام . وكذلك أولاء يمدها الحجازيون غير أنهم يلحقون بها الكاف فقط فى حالة الإشارة إلى البعيد ، وتميم تقصرها وتلحق بها الكاف أما قبائل قيس وأسد وربيعة فإنها تقصر أولاء كتميم لكنها تلحق بها اللام[2] مع الكاف ، وقد ورد على لغتهم :

أولا لك قوى لم يكونوا أشابة وهل يعظ الضليل إلا أولا لكا

ومما يلحق بهذا أيضاً أن تميما لا تقول « هذه » فى وصل الكلام وإنما تقول « هذى » فاذا وقفوا قالوا « هذه » ، أما الحجازيون وقيس فيقولون « هذه » فى الوقف والوصل . ولم يرد فى القرآن الكريم استعمال « هذى ولا ذاك ، ولا تيك ولا هناك ، ولا أولا لك ولا أولاك » بل كل ما جاء فيه على لغة الحجازيين « إن هذه تذكرة » ، « وذلك هو الفوز العظيم » ، « تلك الرسل » ، « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » ، « هنالك الولاية لله الحق » .

ويضاف إلى ما تقدم أن قبيلتى تميم وقيس تقولان « هاءنّا » بكسر الهاء وتشديد النون وغيرهما بضم ففتح بدون تشديد .

٣ — « إما » التى للتفصيل تنطقها قبائل تميم وأسد وقيس بفتح الهمزة ، فى مثل « أنت إما كريم وإما بخيل » يفتحون همزتيهما وبعض منهم يقلب ميمها الأولى مع ذلك ياء . وقد روى لرجل من عبد القيس يقال له سعد وكان عاقا لأمه :

يا ايتها أمنا شالت نعامتها أما إلى جنة أما إلى نار

وروى أيضا « ايما إلى جنة ايما إلى نار » .

فاذا استعملت تميم « أما » الشرطية المفتوحة الهمزة قلبت ميمها الدغمة الأولى ياء . ويبدو أن الشعراء فى صدر الإسلام كانوا — تظرفا منهم أو لانتشار اللغات — يقحمون لغة قبائل أخرى ليسوا منها لشهرتها بين العرب ومعرفتهم لها ، ولذا نجد عمر بن أبى ربيعة وهو حجازى يروى بيته الآتى على لغة تميم :

رأت رجلا أيما إذا الشمس عارضت فيضحى وأيما بالعشى فيخصر

٤ — ما فتىء وما يفتأ فلان يعمل كذا — من أخوات كان — تقولها تميم ما أفتأ فلان وما يفتىء فتجعله رباعيا . ولم يرد فى كتاب الله إلا قوله تعالى « تالله تفتأ تذكر يوسف » ولم يقرأ بها أحد على لغة تميم .

٥ — امل — من أخوات إن — تنطقها تميم لغن بالغين المعجمة والنون قال الفرزدق :

قفا يا صاحبى بنا لغنا نرى العرصات أو أثر الخيام

وليس فى القراءات الصحيحة هذا الاستعمال .

٦ — « الهة » : تأثرت بعض بطون تميم بالفرس ، كما تأثرت بذلك قبيلة لخم وما جاورها ، فبنو سعد بن زيد مناة من تميم ولخم ومن قاربها يبدلون الحاء هاء قال النعمان بن المنذر لرجل ذكر عنده رجلا : أردت أن تذمه فمدحته . وقال رؤبة بن العجاج وهو من بنى سعد بن زيد مناة :

---

(١) وهذا ما سار عليه ابن مالك وما رجحه الصبان على الأشمونى ، وقال إنه عزى لسيبويه .

(٢) ذكر المرحوم حفنى ناصف فى مميزات لغة العرب ، والمرحوم الرافعى فى تاريخ الأدب أن تميما كقيس وأسد وربيعة فى استعمال أولا لك وتعليلهما قد يكون من شرح التوضيح ، الذى رجح خلافه الصبان وهو ما ذكرته .

لما رأتني خلق المدوه يراق أصلاد الجبين الأجله
بعد غدائي الشباب الأبله

ومنها : لله در الغانيات المده . أراد : الأجلح والمدح .

وقد وردت ألفاظ كثيرة في كتب اللغة مترادفة وليس من فرق بينها إلا أن هذه بالحاء وتلك بالهاء مع أن الوزن والترتيب واحد . فكل ما ورد من ذلك ، إنما هو نطق القبائل التأثرين بالفرس . وفي رأيي أن جميع الألفاظ التي أبدلت حاؤها هاء يجب أن تحفظ كأثر أدبي تاريخي ولا ينبغي أن نستعملها في أساليبنا . ولذلك يجدر أن يلاحظ هذا من يقومون بوضع المعاجم فيتخلوها ويضموها إلى أصولها المتفرعة منها مشيرين إلى عدم جواز استعمالها ولا ينبغي أن يضعوها في مواد مستقلة . وأعتقد أنه لا يجوز لنا أن نقول فلان مليه حينما نريد أنه مليح . ومدهت فلانا حينما أقصد أنني مدحته ولا معنى لأن نجعل ملح أو مدح في باب الحاء فصل الميم وملهه أو مده في باب الهاء فصل الميم في معاجم اللغة وأذكر أنني كتبت في هذا الشأن بحثاً واسعاً نشر أغلبه وفيه قواعد وضوابط يمكن الاسترشاد بها لمن شاء .

٧ — العنعنة : تحرص القبائل النجدية على أن توضح الهمزة وبخاصة في أول الكلمة أو آخرها خشية أن يجور عليها بدء النطق أو الوقف فيقوون الهمزة إلى أن تكاد تقارب العين وفي بعض الأحيان ينطقونها عينا ، وهذا ما يسمى حينئذ عنعنة وقد تنسب إلى تميم وقيس أنهما تقولان في أن عن وفي أسلم عسلم وقد جاء من ذلك :

فما أبن حتى قلن يا ليت « عننا »
تراب و « عن » الأرض بالناس تخسف

ويبدو أن تميما تقلب الهمزة الأخيرة في بعض الأحيان عينا فقد ورد أن قبيلة تميم تقول في الخباء خباع .

٨ — الكشكشة والكسكسة : وكما تحرص القبائل النجدية على توضيح الهمزة تحرص كذلك على إبراز الحركة الأخيرة إذا كان في الوقوف عليها لبس وذلك في كاف المخاطبة إذ أن الوقف عليها بالسكون يجعلها تلتبس بكاف المخاطب فللفرق بينهما قلبوا كاف المؤنثة شينا ثم توسعوا في ذلك فقلبوها في حالة الوصل أيضاً . وهذا ما يسمى كشكشة ، وقد روى لقيس ابن الملوح :

فمينائش عيناها وجيدش جيدها
سوى عن عظم الساق منش دقيق

وأصله عيناك وجيدك ومنك . وفي البيت شاهد آخر وهو همزة أن التي أبدلت عينا . ومن كشكشتهم ما يكون بالحاق شين ساكنة بكاف المخاطبة حين الوقف عليها (رأيتكش). وهذه الكشكشة وتلك في قبائل تميم وقيس وأسد وربيعة . وبعض بطون هذه القبائل يجعلون بعد كاف المخاطبة أو بدلها سينا وذلك ما يسمى الكسكسة .

قال الزبيدي في مقدمة شرح القاموس: الكشكشة في ربيعة ومضر والكسكسة فيهم أيضاً . وقال الأشموني : الكشكشة في لغة تميم والكسكسة في لغة بكر من ربيعة . وفي شرح الرضي على كافية ابن الحاجب : ناس كثير من تميم وأسد يجعلون مكان كاف المؤنث شينا .

غير أننا نجد صاحب القاموس — وشارحه الزبيدي أيضاً — تارة يقول الكشكشة لتميم والكسكسة لبكر . ومرة يقول الكسكسة لغة تميم لا بكر وقيل الكسكسة لهوازن وهي من قيس ، ومرة يقول : كشكشة أسد وكسكسة ربيعة ويوافقه في ذلك أحمد بن فارس في كتابه الصاحبي . ومرة يقول الكشكشة في بني أسد أو في ربيعة . ومرة يقول إن إبدال الكاف التي للخطاب شينا لغة بني عمرو من تميم . وعلى كل حال فإن بطون تميم جمعت بين النوعين ماذلك إلا لمجاورتها كما سبق أن قدمته في مقال سابق — لمختلف هذه القبائل من أسد وقيس وربيعة .

لكن أهل اليمن يجعلون الكاف شينا مطلقا وسمى ذلك شارح القاموس « الوتم » وسماه الأستاذ هاشم عطية في كتابه الأدب العربي نقلا عن بعض المصادر « الشنشنة » والقلقشندي في صبح الأعشى ، قصر أهل اليمن على حمير ، وقصر الكاف على التي للخطاب . هذا ولم تقع في القراءات الصحيحة تلك الأنواع من قلب الكافات شينا أو سينا أو إلحاق شين أو سين . وقد سمع في قراءة شاذة : قد جعل ربش تحتش سريا